V. تسطيح مضامين المقررات التعليمية من الأسفل

1. ضرورة و فائدة تكرار بعض المفاهيم

سيجد القارئ أنني أكرر بعض ما سبق ذكره في الفصول السابقة، و ذلك مقصود مني بغرض تثبيت أفكار جديدة ظلت مهملة لعقود و و بهدف إبعاد التفكير في ما دأب المسؤولون عن ترديده كمشاكل مهمة با لتعليم و هي الهدر المدرسي و التكرار و الاكتظاظ و التكوين المستمر لرجال و نساء التعليم. فهذه ليست أبدا هي المشاكل و من العبث ترديدها و تقديمها كأوليات لإصلاح التعليم . وجب الكف عن ذلك كليا و الالتفات إلى ما أشار إليه **تقرير المجلس الأعلى للتعليم**، و الذي جاء فيه بالحرف ما يلي : "ما تزال عدة **نقائص بيداغوجية وتنظيمية** قائمة؛ فجودة التعلمات الأساسية، **(القراءة، الكتابة، الحساب، والتحكم اللغوي)، وطرائق التدريس**، والمعينات الديداكتيكية تظل محدودة **بالنسبة للتلاميذ الذين يتمكنون من البقاء في المنظومة**" الأمر لا يتعلق إذن بضحايا الهدر المدرسي الذي يكثر اللغط فيه بل يتعلق بـ :

- ✓ "**التلاميذ الذين يتمكنون من البقاء في المنظومة**". و لو لا تفاني رجال و نساء التعليم من أجل إنقاذ كل من يمكن إنقاذه من بينهم لكان حالهم كحال ضحايا الهدر المدرسي،
- ✓ و المكررون منهم ليس أحسن حال من غير المكررين،
- ✓ و تلاميذ القسم الغير المكتظ ليسوا أحسن حال من من تلاميذ القسم المكتظ.

و عليه وجب التذكير بما يلي و التركيز عليه :

1) فمرة أخرى, المدرسة العمومية بالأمس **و** لعقود من الزمن ، قبل و بعد الاستقلال, ظلت **صاحبة الريادة بامتياز**. و في مقابلها كانت **المدرسة الحرة** مجرد قارب للنجاة لمن استعصى عليه من التلاميذ متابعة دراسته بالمدرسة العمومية. و حصل ذلك بالرغم من توفر كل العوامل الواردة في **بالفصل الثالث من هذا العرض**, و المتهمة اليوم باطلا بالإسهام في إفشال نفس المدرسة.
2) و الذي نغفل عنه دائما و يَجب التذكير به مرة أخرى , هو كون تلك الريادة كانت حاصلة بفضل دسامة و جدية مضامين المقررات , في مدرسة كانت تعتبر تلاميذها **راشدين و مكتملي النضج عقليا** رغم صغر سنهم. و بفضل نفس المقررات كانت تتوفر عند رجال و نساء التعليم القناعة التامة على أن تلاميذ الابتدائي ليسوا فقط قادرين على استيعاب مضامينها الدسمة بل متعطشين للنهل منها. فكانت مضامين كل الدروس هامة و مفيدة و ممتعة للأستاذ و للتلميذ مع ا. كما كانت المنهجية المتبعة في التلقين هادفة بالقدر الذي كانت تتطلب من التلاميذ الاجتهاد فكانت تشجعهم على استنفار مؤهلاتهم الذهنية و على السمو بعقولهم إلى مستوى مضامين البرامج المقررة.
3) و لم يكن، و بحق, مقبولا النزول بمستوى التعليم إلى مستوى فئة القليلة من ضعاف التلاميذ على حساب باقي التلاميذ من فئتي المتوسطين و المتفوقين من بينهم. و بفضل تلك المعارف المكتسبة بالمدرسة , و بفضل التردد عليها كان التلميذ يشعر بقيمة مضافة تميزه عن الطفل الغير متمدرس. و تميزه عن باقي التلاميذ من دون مستواه الدراسي. فكانت المدرسة تجعل منه ليس فقط متعلمًا يقرأ و يكتب و يحسب و لكن مواطنا **ناضجًا** رغم صغر سنه بفضل مخزون هام من المعارف المكتسبة التي تميزه مرتين عن الأمي مهما كان سنه. تميزه عنه بالقدرة على القراءة و على الكتابة و على الحساب من جهة , و تميزه عنه من جهة ثانية بمعارفه الغير الدارجة بين الناس في الحياة العادية خارج المدرسة . و الذين كانوا تلاميذ الابتدائي في الستينيات و فيما قبلها و يقرأون هذه السطور يتذكرون بها طفولتهم المدرسية و يعون جيدا صحة ما جاء فيها.
4) أما اليوم و منذ أكثر من عقدين من الزمن , فالحاصل هو العكس تماما. حصل **تسطيح لمستوى مضامين المقررات من الأسفل** ***le nivelage des programmes par le bas*** إلى درجة التفاهة و السخافة, بقصد مواءمة مستوى فئة ضعاف التلاميذ ، و الذي أدى إلى الإ فراط في الاستخفاف حتى بعقول كل التلاميذ و من بينهم الأكثرية التي كانت مهيأة طبيعيا لتكون من ضمن الفئتين المتوسطة و المتفوقة. و الذي كرس هذا الواقع في أذهان رجال و نساء التعليم يكمن في مضامين الكتب المدرسية. و من المعلوم لذى دوي الخبرة الحقة بعلم النفس أن فئة الضعاف بكل قسم - حيث توجد عينة إحصائية عشوائية

échantillon aléatoire- و بحسب التوزيع الطبيعي للمؤهلات الذهنية بين تلاميذ مثل هذه العينة العشوائية على منحنى Gauss, لا تمثل **إلا نسبة قليلة من مجموع هم بكل قسم**. فبدلا مرة أخرى , من إقرار ***بيداغوجية فارقية*** تراعي ذلك التوزيع الطبيعي للفوارق في المؤهلات الذهنية بين الأطفال , فتعطي لكل فئة حقها في التكوين , أصبحت السياسة المعمول بها بقصد أو بغير قصد هو **السير بكل التلاميذ سير ضعافهم**, فحصل كما أسلفت , تسطيح مستوى الجميع من الأسفل . و بدلا من الحديث عن الفشل المدرسي في حق ضعاف التلاميذ أصبح الحديث عن فشل المدرسة العمومية برمتها على حساب كل أو على الأقل جل التلاميذ. و تبقى

2. الكتب المدرسية بالابتدائي تكرس تسطيح مستوى التلاميذ من الأسفل

للكتب المدرسية مرة أخرى, دور كبير في تكريس تسطيح مضامين المقررات بالتعليم الابتدائي هذه الكتب أصبحت هي التي تلعب دورا توجيهيا قويا للأساتذة في الاتجاه الخاطئ. فما الفرق بين أثر غيبها بالأمس و أثر توفرها اليوم :

- بالأمس, في غياب الكتاب المدرسي الخاص بتلميذ المدرسة الابتدائية, كان مجرد العنوان بالمقرر يدفع عددا من الأساتذة للبحث الواسع و المعمق في موضوع أي درس في مراجع كثيرة و متنوعة من أجل إعداد درسه.
- بغياب الكتاب المدرسي لم يكن الأستاذ يدري حدود مجال بحثه من أجل إعداد دروسه. فكان مجال ذلك البحث مفتوحا.
- في غياب الكتاب المدرسي بالمدرسة الابتدائية كان من بين الأساتذة على سبيل المثال , من يكتب جزءً من قصيدة شعرية على السبورة أو نصا نثريا متميزا , ثم بفضل بحثه يبدأ في الحديث بإسهاب عن سيرة الشاعر أو الأديب بأسلوب شيق إلى أن يصل إلى الظروف التي استوحى منها نصه المعروض على السبورة, فيصل حديثه بقوله : "و قال" مشيرا إلى صدر النص . ثم يسترسل في شرحه . بذلك يصبح النص مفهوما بتلقائية لدى المتعلمين, بعد أن أنصتوا باهتمام كبير لعرض الأستاذ. و يتيسر لهم شرح معاني كلماته, كما يسهل حفظه عن ظهر قلب, مع استيعاب العظات و العبر و القيم التي يحملها كرسالة للقارئ و مع التأثر المثمر بجمال الأسلوب و بديع الألفاظ.
- و في غياب الكتاب المدرسي بالابتدائي لا شك أن جل الأساتذة كان لديهم هاجس زيارة المفتش, فكانوا من حسن حظ تلاميذهم الصغار، يودون إبهاره بعرض غني و متميز و مثمر . الشيء الذي كان من شأنه بلا شك , دفع المعلمين إلى البحث في كل موضوع بأكبر قدر من العمق و التوسع في كتب يقتنونها أو يستعيرونها. فكانت بذلك معارفهم و ثقافتهم تظل غنية و مُحيّنة, و كانت عروضهم للدروس أمام التلاميذ تتسم بالصرامة و الثراء و التشويق و الفائدة. و لم يكن يمثل الملخص المنقول على السبورة ثم على دفاتر التلاميذ إلا الجزء اليسير من عرض الأستاذ . فكان التلاميذ يدركون بذلك مدى تفوق الأستاذ في المادة, الشيء الذي يشعرهم بأنه متميز عن غيره ممن يعرفونهم من حولهم في البيت و في الشارع, فيقدرونه و يحترمونه و يُغريهم تقليده في البحث و المطالعة حتى يصبحوا مثله متميزين عن غيرهم. كل ذلك كان من محاسن غياب كتاب مدرسي بين يدي التلميذ . أما توفره فيُعفي حتما الأستاذ من البحث و التوسع في معارفه و من تحيينها , فتصبح عروضه سطحية و باهتة و مملة بل حتى منفرة.

فبالطبع لم يكن كل الأساتذة متميزين في الحياة الدراسية لكل تلميذ , بل عدد غير يسير منهم كان باهتاً فلم يترك أي أثر لا تعليمي و لا تربوي في نفوس و عقول تلاميذه, إلى درجة أن كل منا, نحن الأجيال التي عاشت تلك التجربة الرائدة , لا يتذكر ليس فقط إسم مثل هذا الأستاذ الباهت , بل انمحت من ذاكرته حتى ملامح وجهه . أما الأساتذة المتميزون فلقد طبعونا إلى درجة أننا نتذكر حتى نبرات أصواتهم . و مرة أخرى, غياب الكتاب المدرسي كان يرفع من حظوظ تواجد مثل هؤلاء الأساتذة المتميزين في الحياة الدراسية لكل تلميذ. و بلا شك أنهم كانوا بالعدد الكافي الذي كان من شأنه تعويض النقائص المهنية التي ميزت الباقين من زملائهم الباهتين.

أما بتوفر الكتب المدرسية اليوم بين يدي تلميذ الابتدائي و مع تفاهة مضامينها

- ✓ فتوحي لجل بل لكل الأساتذة بأن كل التلاميذ قاصرين عقليا فتحول بذلك دون الاجتهاد من جانبهم حتى يكونوا متميزين في أقسامهم.
- ✓ مضامين تلك الكتب تصور لهم الحد الذي يعتقدون أنهم ملزمين بعدم تجاوزه.
- ✓ تلك المضامين توحي لهم بأن كل تجاوز لتلك الحدود ليس فقط من دون جدوى بل قد يكون فيه تعدي على قدرات التلاميذ المفترض بل المعتقد خطأ أنها محدودة.
- ✓ و هذا فقط بالنسبة لفئة الأساتذة الذين يهمهم أن يكونوا متميزين في حياتهم المهنية و هم الأكثرية.
- ✓ أما غيرهم من الأساتذة الباهتين أصلا, فيجدون في الكتاب المدرسي مبررا لجمودهم.
- ✓ تواجد و توفر الكتاب المدرسي بين يدي التلميذ , يعفي الأستاذ من البحث و من التوسع و من التعمق في مواضيع الدروس, فيكتفي بما يقدمه هذا الكتاب من عروض جد متواضعة.
- ✓ و مع مرور الزمن فلا شك أن الأستاذ قد يصبح لا يعرف في الموضوع المدرس أكثر مما يعرضه الكتاب المدرسي.
- ✓ بذلك يكون هذا الكتاب قد أسهم في تسطيح مستوى تعليم التلميذ من الأسفل , و في تسطيح حتى مستوى معارف الأستاذ التي قد تصبح لا تتعدى مستوى ما هو معروض بتلك الكتب.
- ✓ و التلميذ ما يلبث أن يدرك ذلك , فلا يجد في أستاذه تلك القيمة المضافة التي يبحث بفطرته عنها, من حيث المعارف و الثقافة, و التي من شأنها أن تميزه عن غيره لا بالبيت و لا بالشارع. فلا يجد فيه ما يثير تقديره حتى يكون له مثالا يُقتدى به و يقتدي به.

3. أهمية الكتب المدرسية بالإعدادي و الثانوي

الكتب المدرسية **تصبح ضرورية فقط بين يدي تلاميذ الثانوي بسلكيه. و لا بد من الإشارة في نهاية كل درس بها بهذا السلك إلى غيرها من المراجع, يُحال عليها التلميذ كي يفهم أن ما بين يديه ليس منتهى العلم, فيعتاد بذلك على إغناء معارفه من غيرها.** أما بالابتدائي فيستحسن الاقتصار على كتاب نصوص القراءة بين يدي التلميذ بكل مستوى, إلى جانب كتب مدرسية في الرياضيات مليئة و بوفرة كافية من المسائل الحسابية في كل درس متدرجة في الصعوبة و التعقيد من دون غيرها من التمارين التطبيقية. فوفرة تلك المسائل الحسابية بين يدي التلميذ في كل درس من دروس الرياضيات بكل مستوى , هي وحدها الكفيلة بتمكينه من الكفاية في المادة إن دأب الأستاذ على إحالته عليها و استطاع بذلك أن يغرس في نفسه متعة رفع تحدي حل المسائل الحسابية المعقدة . مثل هذه الكتب هي بمثابة ميادين للمباريات بالنسبة للرياضيين.

و اليوم, انعدام مثل هذا الكتاب المدرسي في مادة الرياضيات بالابتدائي و بهذه المواصفات, يسهم في ضعف التلاميذ في المادة, بحيث لا يجدون بين أيديهم مجالا و فرص كافية للتمرُّن على استعمال المهارات المكتسبة و على ترسيخها في أذهانهم. في هذه المادة و بهذه المواصفات يعتبر الكتاب المدرسي بالابتدائي حالة استثناء . أما في باقي المواد و بالنظر لما سبق , فمن الأفيد الاستغناء عن الكتب المدرسية الخاصة بالتلميذ و تعويضها بتوفير مراجع خاصة بالأستاذ ليس فقط غنية و متوسعة في المواضيع المعروضة , بل تحيل الأستاذ إلى مراجع أخرى أوسع و أعمق بحثا. فمن أجل حسن تربية التلاميذ يَحسُن بهم الجلوس أمام أساتذة متميزين عن غيرهم بسعيهم ليكونوا ما أمكن موسوعيين ***encyclopédistes***. من غير ذلك تستفحل بيداغوجية الغباء و تتحول المدرسة إلى مصنع للغباء. فماذا عن بيداغوجية الغباء ؟

كتابة تعليق | الرجوع إلى الصفحة الرئيسية.....